

التناص القرآني وتأويل المقدس

في مزامير رواية "قيامة الحشاشين" للهادي التيمومي

Quranic Intertextuality and the Interpretation of the Sacred in the Psalms of the Novel "The Resurrection of the Assassins" by Al-Hadi Al-Taymumi

أحلام بلكاتب *

جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة (الجزائر)

البريد الإلكتروني: a.belkateb@univ-dbk.m.dz

تاريخ النشر: 2025/06/07	تاريخ القبول: 2025/05/29	تاريخ الإرسال: 2025/02/02
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص

الحشاشون فرقة باطنية حازت سمعة رهيبة باعتبارها من أشهر من أرسى دعائم العنف والاعتقال خدمة لأغراض تجمع بين السياسي والعقدي، وقد وظفت لذلك فكرة المعنى الباطني للنص المقدس، واختصاص الإمام القائد ونائبه بتأويله، فضلا عن التقية منعا لانكشاف المقاصد الخفية من التأويل. اشتغلت رواية قيامة الحشاشين على هذا الموروث التاريخي والفكري منتجة نصا يجمع بين التاريخي والمتخيل في قالب المغامرة والغموض، وهو يوازي ويفاعل بين نص المزامير وزمنه التاريخي، وقصة أستاذ التاريخ في الزمن المعاصر. كما أن المزامير جمعت -عبر التناص مع المقدس والتاريخ- بين الواقعي والمتخيل. وقد خلقت بذلك نصا يحاول تأويل المقدس لتبرير وشرعنة المنحى العقدي والفكري والسياسي لجماعة الحشاشين: كتنقيس رأي الفرد، وتسييس المقدس، وشرعنة التضليل والعنف، وتأويل المقدس بغرض حشد الأتباع، وشيطنة الخصوم، وتحريف النص ليقبل تأويلا يساهم في التأسيس لخلفية عقدية تخدم أغراض الجماعة، ولا يمكن النجاح في ذلك إلا بتعطيل العقل، وقمع القيم الإنسانية الأصيلة.

الكلمات المفتاحية: التناص، المقدس، تأويل، قيامة الحشاشين.

* بلكاتب أحلام.

Abstract:

The Assassins are an esoteric sect that gained a terrible reputation as one of the most famous to establish the foundations of violence and assassination in the service of purposes that combine politics and ideology. For this purpose, they employed the idea of the inner meaning of the sacred text, and the specialization of the Imam, the leader, and his deputy in interpreting it, in addition to taqiyya to prevent the hidden purposes of interpretation from being revealed. The novel *The Resurrection of the Assassins* worked on this historical and intellectual heritage, producing a text that combines the historical and the imaginary in the form of adventure and mystery. It parallels and interacts between the text of the Psalms and its historical time, and the story of the history professor in contemporary times. The Psalms also combined - through intertextuality with the sacred and history - the real and the imaginary. Thus, I created a text that attempts to interpret the sacred to justify and legitimize the ideological, intellectual, and political orientation of the Assassins: such as sanctifying the opinion of the individual, politicizing the sacred, legitimizing deception and violence, interpreting the sacred for the purpose of mobilizing followers, demonizing opponents, and distorting the text to accept an interpretation that contributes to establishing a ideological background that serves the purposes of the group. This can only be achieved by disabling reason and suppressing authentic human values.

Keywords: intertextuality, sacred, interpretation, resurrection of the Assassins.

1. مقدمة:

شغلت فرقة الحشاشين كثيرا من كتابات المؤرخين قديما وحديثا نظرا للأثر العميق الذي تركته في تاريخ المسلمين، ولا تزال آثارها باقية لغاية الساعة. ولعل مصدر قوتها راجع إلى النواة الفكرية والعقيدة التي قامت عليها الفرق الباطنية، ومن ضمنها هذه الفرقة التي هي إحدى فرق الشيعة الإسماعيلية. فقد وسمو بالباطنية لادعائهم أن لظاهر القرآن والأحاديث معنى باطنيا. وهذا ما دفع هذه الفرقة وغيرها من الفرق الباطنية إلى مخالفة قواعد التفسير المتعارف عليها.

ومما زاد في غموض هذه الفرقة اتخاذها مبدأ التقية سترًا يحميها من بطش أعدائها، وهو مبدأ ورثته عما ينسب للإمام جعفر الصادق، تأويلاً لقوله تعالى: **جِئْتُمْ نُوًى نُوًى نُوًى نُوًى** [آل عمران: 28]. فكان أفراد هذه الطائفة ودعاتها يظهرون غير ما يبطنون متذرعين بالتقية. كما أنهم قسموا دعوتهم أطواراً، من بينها طور السرية (الستر) فلا يظهرون فيه دعوتهم للعلن. أما طور الظهور فيسمى بالقيامة، ومنه استشف الهادي التيمومي عنوان الرواية. وسواء تعلق الأمر بطور الستر، أو بطور الظهور، فقد أثر عنهم الكتمان الشديد الذي يكتنف عقائدهم.

ومن هنا يمكننا التساؤل عن الكيفية التي وُظفت بها رواية قيامه الحشاشين التناص مع النص القرآني المقدس لإنتاج نص مزامير تؤوّل المقدس. وما هي الأسباب التي دفعت الكاتب لاختيار هذه الفقرة

بالذات لصياغة نص يجمع بين زمنين متناظرين: ماضي حشاشي حسن الصّباح، وحاضر الوطن العربي.

وقد ارتأينا لذلك توضيح المقصود من مصطلح التناص، وإلقاء نظرة خاطفة على الإطار العام للرواية، والتمثل في الجمع بين التاريخي والتمثيلي في إطار روائي من المغامرة والتشويق، لنتطرق إلى تحليل مزامير الرواية، وكيفية تناصها مع المقدس القرآني لإنتاج نصها الذي يقدم قراءة مغايرة لمقصد النص، خدمة لأهداف وغايات الدعوة الإسماعيلية النزارية في نسختها الدموية المتمثلة في حركة الحشاشين.

2. تمهيد نظري

التناص من المصطلحات المرنة التي لها القدرة على التلون بلون مجال الدراسة وتوجهات الدارسين؛ فقد منحه بعضهم صبغة شمولية حيث رُبط بالنص، من حيث كونه نصاً، لأن «كل نص يتشكل كفسيفساء من الاستشهادات، كل نص هو امتصاص وتحويل لنص آخر»⁽¹⁾، كما تقول واضحة المصطلح. أو هو مرتبط بالقارئ حيث هو «وجهة النظر التي بفضلها يدرك القراء أنه داخل العمل الأدبي، الكلمات لا تدلّ بالإحالة إلى الأشياء أو المفاهيم، أو بشكل أعم، بالرجوع إلى عالم غير لفظي. إنها تدلّ بالرجوع إلى مركبات من تمثيلات سبق إدماجها في العالم اللغوي. هذه المركبات يمكن أن تكون نصوصاً معروفة، أو شظايا من نصوص تحيا، رغم انفصالها عن سياقها، نتعرف عليها في سياق جديد»⁽²⁾ وهذه المفاهيم عامة وشاملة لمختلف المظاهر التناصية.

أما نحن في بحثنا هذا فقد اخترنا مفهوماً جزئياً وحصرياً، وهو مفهوم جبرار جنيت؛ إذ يعني لديه الحضور الفعلي لنص في نص آخر: من خلال شكل واضح وحرفي متمثل في الاستشهاد باستعمال مزدوجين، بذكر أو بإهمال ذكر المرجع. أو من خلال شكل أقل وضوحاً، وأقلّ شرعية، يتمثل في السرقة التي هي استعارة غير مصرح بها، ولكنها حرفية. أو من خلال شكل أقل وضوحاً، وأقلّ حرفية؛ وهو الإيحاء الذي يعني أن يحيل وجود ملفوظ ما إلى وجود علاقة بينه وبين ملفوظ آخر، حيث يستعين القارئ بنباهته لإدراك هذه العلاقة.⁽³⁾ وهذا المفهوم يحصر التناص في تمظهراته الجزئية والحرفية.

والغاية من اختيارنا تكمن في طبيعة الظاهرة التناصية المرصودة في هذا البحث، حيث تقيم مزامير رواية قيامة الحشاشين وحواشيها، علاقة تناصية متعددة الأشكال، تظهر في معظمها حضوراً حرفياً لأجزاء من كم كبير من السور والآيات القرآنية، نظراً لكون هذه المزامير تأويلاً للمقدس القرآني، وتأسيساً لمقدس جديد. غير أننا استعصنا عن مفهوم السرقة، الذي يبدو غير وظيفي هنا - نظراً لتعذر نسبة النص

القرآني لغير قائله بسبب شهرته - بمفهوم آخر ذي جذور تراثية وهو مفهوم الاقتباس. وهو «أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن، ولا ينبه عليه»⁽⁴⁾. فالأقتباس مفارق للاستشهاد، من حيث اغفاله ذكر المرجع، ووضع المقبوس بين قوسين، والقدرة على التصرف في نصه، لذلك فهو قريب من السرقة التي تتعمد التكتم على الأصول، وإلغاء الحدود، ونقل ملكية كلام الآخر إلى الأنا. ورغم وضوح المصدر في الاقتباس إلا أنه يسمح بخروج كلام الله من القرآن المقدس، ليصبح جزء من كلام البشر، وبالتالي منح المقدس تأويلاً آخر يوافق الغرض من الاقتباس، فضلاً عن التوشح بهالة القداسة التي تحيط بالنص الأصلي. وهذا ما نلاحظه في المزامير المنسوبة للصباح شيخ الحشاشين في رواية قيامة الحشاشين للهادي التيمومي.

3. الحشاشون بين الواقع التاريخي والرواية:

اشتغلت رواية: قيامة الحشاشين على الغموض الشيق الذي يحيط بالفرقة، خالقة جوا من الإثارة يحاكي أجواء الروايات البوليسية، وما يحيط بها من أسرار ومكائد، باعتبارهم من أبرع من أنقن فنون التخفي والتسلل والاعتقال السياسي في تاريخ البشرية جمعاء. كما أنهم برعوا في فنون التجسس والدعاية، ويعضد ذلك كله وعي بواقع حال الناس، واتقان للعلوم الدينية لمختلف الفرق والمذاهب، وإدراك لمواطن ضعفها وقوتها والفروق بينها، ووعي بمختلف المذاهب الفكرية والفلسفية، وقدرة على التحليل والجدل، بما يشكك الآخرين في قناعتهم⁽⁵⁾، ويدعوهم لقبول تأويلات للنصوص المقدسة، تبدو للوهلة الأولى غير قابلة للتصديق، لولا حالة الشك التي تم التأسيس لها سابقاً.

وقد كانت فرقة الحشاشين من أكثر الفرق تنظيماً وانضباطاً وسرية، ولعل الفضل الأكبر في ذلك راجع إلى مؤسسها: حسن الصَّبَّاح الذي اتفق أتباعه ومعارضوه على نبوغه وبعد نظره، غير أن الزمن والحوادث أتلقت تراثه المكتوب. ومن المأثور عنه أنه كتب مذكراته بالفارسية، وحفظها في قلعة الموت الشهيرة، وقد عرفت باسم: "سرگزشت سيدنا" وتعني "سيرة سيدنا". والكتاب مفقود لا نجد منه غير منقولات متفرقة في كتب من أطلع عليه⁽⁶⁾. وقد تحول هذا الكتاب في الرواية المدروسة إلى مزامير، وهو اسم يذكرنا بسفر المزامير، أو مزامير داود المثبتة في الكتاب المقدس⁽⁷⁾. وكأن الصباح صار نبياً جديداً جاء بنص مقدس جديد - نص عربي لا فارسي كما هو حال مذكراته الحقيقية - يحاول تأويل المقدس العربي الأصل (القرآن) لسرد الواقع واستشراف المستقبل.

تحمل رواية قيامة الحشاشين بعدين زمنيتين متقابلتين: زمن حسن الصباح زعيم الحشاشين متجسداً في النص الأثري الذي ينسب للصباح، والذي يتكون من سبعة مزامير، إضافة إلى حاشية لكل واحد من

المزامير السبعة، تعتبر شرحا وإيضاحا وتفصيلا لكل منها. وزمن أستاذ التاريخ الذي يجد القبر والمزامير. والفرق بين الزمنين عميق وواضح: زمن الصَّباح حيث الوصول إلى الحق لا يمر -حسب هذه الطائفة- إلا عبر النص مؤولا من قبل الإمام المعصوم، وبما أن إمام الإسماعيلية النزارية كان محتجبا (الغيبة) زمن التزام الصباح لقلعة الموت، فقد صار الصباح داعي الدعاة⁽⁸⁾ والمكلف بإنفاذ تعاليم الإمام والتبليغ عنه، أو ما يدعى لدى الإسماعيلية بالأساس أي وصي الإمام⁽⁹⁾. وزمن الأستاذ حيث الحقيقة مرهونة بالعلم وأدوات العقل، العقل ذاته الذي عطَّله الحشاشون حين جعلوا العلم حكرا على شخص الإمام ووصيه⁽¹⁰⁾. وفي ظل هذه المفارقة بين الزمنين يقف الأستاذ مشوشا، مطاردا، ومهددا من طرف جماعة اخترقت جُدر الزمن وبقي وجودها ممتدا في الزمن الحاضر.

4. التناص القرآني وتقديس الإمام نموذج (القائد الفرد):

المزمور الأول الذي جاء منسوباً إلى الصَّباح سمي *مزمور الحمد للإمام المعصوم* وفي ذلك إحياء واضح إلى فاتحة القرآن التي استُهلَّت باللفظ ذاته أي: "الحمد" لكنه ليس حمداً (لله رب العالمين) كما هو الحال في فاتحة القرآن إنما هو حمد (للإمام المعصوم) فقد تمت عملية استبدال في محاولة لإنتاج نص مقدس جديد، ينصَّب فيه الإمام بديلاً للإله، مستعيرة بذلك كل سمات الإجلال والخضوع والتقديس. ويتعمق هذا المنحى بقراءة نص المزمور، فالإمام (ساكن السحاب)، وهو الذي جعل الصباح (سوط عذاب)، و(هازم الأحزاب).⁽¹¹⁾ وهذه الأفعال والصفات -أو قريب منها- متعلقة بالله تعالى وقد ورد ذكرها في كثير من آيات القرآن الكريم،⁽¹²⁾ مما عزز الاستبدال الذي حدث في عنوان المزمور، فالصفة الأولى نسبت للإمام مباشرة، أما الصفتين التاليتين قد نسبتا للصباح باعتباره أداة للإمام ومحققاً لإرادته.

يبدو هذا المنحى لمن لا يعرف غير الإسلام السني ضرباً من الكفر أو الشرك، غير أن الإسماعيلية، ومن ضمنهم فرقة الصباح، يرون فيه تنزيهاً للذات الإلهية عن التشبه بالبشر، فهم ينكرون نسبة الأسماء والصفات لله ويؤولونها.⁽¹³⁾ وينسبون الأفعال المنسوبة لله عند السنة إلى العقل الكلي أو (السابق)، وهو الذي أبدع النفس الكلية أو (التالي). وعلى نفس المنوال أخذوا ينسبون للإمام الأسماء والصفات التي للعقل الكلي لأنه المقابل له في العالم الجسماني⁽¹⁴⁾. ووفق هذه العقيدة يسترسل الصباح في مزموره فيقول: «وجدتني ضالاً فأرسلت عميرة زاراب، وفقيراً فجاءني خراجك من كل باب، وعائلاً فرزقتني جنات نخيل وأعنان». ⁽¹⁵⁾ فهو ينسب الهداية والإغناء والرزق للإمام، وهي أفعال يصح نسبتها إلى البشر، لكن التناص الأسلوبى الواضح مع سورة [الضحى: 6، 7، 8] يقيم مقالة الصباح مقابلاً مقدساً جديداً يستمد قداسته من التعلق بالنص السابق.

بعد الحمد والثناء اللذان قدمهما الصباح لإمامه، وتعداد عطايه له، أخذ يسرد في هذا المزمور مراحل انتقاله من مذهب الإمامية الاثني عشرية إلى الإسماعيلية، ورحلته إلى مصر لمبايعة الإمام الفاطمي المستنصر بالله ومبايعة ولده نزار. وهي أحداث تاريخية واقعية غير أن المزمور يعيد صياغتها بشكل شعري وأسلوب يحاكي الصياغة القرآنية في سورة المدثر مع استعارة بعض ألفاظها: « قم يا حسن الله تعطر وبأجمل أثوابك فتدثر... اهبط مصر ففيها إمام زمانك، مولاك المستنصر... وعلى العرش سترفع يا صباح فأبشر...»⁽¹⁶⁾ وإذا كان الأمر بالهبوط إلى مصر في القرآن الكريم⁽¹⁷⁾ من باب اللوم والتقريع لبني إسرائيل باعتبار مصر أرض إذلال لهم، فإن تحول فعل الأمر الموجه للصباح من الجمع إلى المفرد، ونسبته إلى الامام، يجعله إيذانا بالرفعة لا بالذل وهنا يغدو الصباح يعقوبا⁽¹⁸⁾ آخر يُرفع على العرش، لكن العرش الجديد سيكون في الرّي لا في مصر.

يسترسل الصباح في الاقتباس من القرآن في هذا المزمور لكن هذه المرة من سورة الطور (الآية 4 و6) في قوله: « علمت بواطن أي القرآن المعمور وغصت من الشرع وأحكامه في بحر مسجور...»⁽¹⁹⁾ وهنا يتم استبدال لفظ (القرآن) بلفظ (البيت) فالقرآن صار بيتا له ظاهر وباطن، ولا يعلم ما في باطنه إلا أهله، علما أن بعض الباطنية يؤلون معنى البيت المعمور بأنه يعني: « السيد محمد، وسقف البيت أبو طالب، وأرض البيت فاطمة بنت أسد وأربع أركان البيت هم محمد وفاطر والحسن والحسين»⁽²⁰⁾. وبالتالي فالحج المقصود في أركان الإسلام هو معرفة هؤلاء وفق الفهم الباطني. والتأويل هنا يبدو متقلتا من كل الضوابط منتسبا إلى رأي رجل واحد يدّعي العصمة ومعرفة علم الباطن. يقول الإمام الغزالي منتقدا هذا المنحى: « ولا مطمح في الوصول إلى الباطن قبل أحكام الظاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر، فهو كمن يدعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب، أو يدعي فهم مقاصد الأتراك من كلامهم، وهو لا يفهم لغة الترك، فإن ظاهر التفسير يجري مجرى تعلم اللغة التي لا بد منها للفهم»⁽²¹⁾. وينسحب هذا المنحى في التأويل على اقتباس عبارة (بحر مسجور)، حيث يصبح الشرع وأحكامه بحرا عميقا يغاص فيه، لكنه بحر يحمل النقيضين: الماء والنار.

5. التناص القرآني وتسييس المقدس:

أما المزمور الثاني فهو من حيث عنوانه الرئيسي: *مزمور الجحود* يشكل المقابل الدلالي لعنوان المزمور الأول، فإذا كان الحمد سابقا موجهها من الصباح للإمام فإن الجحود لا بد صادر من طرف ثالث نجد إشارة خفية إليه في العنوان الفرعي للمزمور: «إنا أعطيناك إفريقية». ويمارس هذا العنوان نفس اللعبة التناصية السابقة أي لعبة الاستبدال، ففي تعلقه بالآية الأولى من سورة الكوثر يُحل لفظة (إفريقية) محل لفظة (الكوثر). ومن خلال هذا الاستبدال يصبح العطاء ذا صبغة مقدسة بالنظر إلى المعطي،

وتصبح الأعطية مشروعة وحصرية. لكن يبدو أن هذا لم يكن رأي أهل إفريقية المعطاة للصباح، فقد نبذوا دعوته، وجددوا حجته، فاستحق المزمور عنوان الجحود.

يتكرر التصريح بالعتاء في متن المزمور حيث يقول الإمام المعصوم للصباح: « اخرج يا حسن فإنا أعطيناك إفريقية والكوثر حملها الماء الدافق من صلبك تثمر. »⁽²²⁾ ويبدو أن الإمام في عطائه هذه المرة قد أعطى الصباح إفريقية والكوثر، فهو لم يقيم بعملية استبدال كما جرى سابقا، إنما بعملية إضافة فقد أضاف إلى الكوثر (المعطى في الآية من طرف الله تعالى لنبيه محمد) إفريقية. ومن غرائب هذا الأمر أن من معاني الكوثر في سورة الكوثر عند الشيعة: فاطمة الزهراء بنت النبي ونسلها الذي منع عن النبي أن يوصف بالأبتر⁽²³⁾، لكن الصباح يفقد بسبب إفريقية المقرونة بالكوثر في المزمور، كوثره مريم حين يغوي سليل إفريقية سليلته.

وفي هذا المزمور يمتزج التاريخي بالمتخيل حيث يزواج بين استضعاف الوزير "بدر الجمالي" للخليفة الفاطمي "المستعصم"، واضطهاده للصباح وعودة الصباح من إفريقية خائبا، وهي أحداث تاريخية، وقصة عشق ابنة الصباح مريم المكتومة، لحبيب ابن أوس بن ضبارة القيرواني، وهروبها معه وزواجها منه بعد تخليها عن عقيدة أبيها، وهي قصة متخيلة، إضافة إلى وصية الإمام للصباح بأن يدفن في إفريقية، وهي وصية تضمنها الشرح لا المتن.

6. التناص القرآني وشرعنة التضليل والعنف:

المزمور الثالث يبدو مفارقا لسابقه إذ يخطط لنفسه سبيلا بعيدا عن التاريخ، ويغوص في غمرة الوعيد لكنه ليس أي وعيد: إنه وعيد باللعن المستعين بالسحر والشعوذة فاستحق بذلك عنوانه: *مزمور الوعيد الأسود*. يقدم متن المزمور مناجاة حميمة بين الصباح وخنجره المبارك، أداته الفضلى لتحقيق مآربه في حياته، لكن الصباح يرجو أن يكون أداة انتقامه أيضا بعد موته من خلال استنزال لعنة سحر أسود. ومنه فالمزمور يعتبر نبوءة تستشرف المستقبل بعد ما يقارب الألف عام، حين يُنبَش القبر ويُستخرج الخنجر والمزامير، حيث أريد للخنجر أن يكون أداة انتقام من نابشي القبر ومدنسيه.⁽²⁴⁾ وقد قدر لأستاذ التاريخ وعلم الآثار أن يكون أحدهم.

لغة هذا المزمور بحسب طبيعة مضمونه بعيدة عن لغة القرآن وأساليبه، ويبدو ذلك منطقيا باعتبار أن هذا المزمور استنزال للعنة سحر يعتبر القرآن ممارسته كفرا وشركا بالله. كما أن القرآن ينفي إمكانية اطلاع الانس والجن على الغيب، لكن يبقى هذا الفهم رهنا بالتفسير السائد لدى أغلب الفرق الإسلامية. أما الباطنية فقد شذوا عن ذلك لأنهم اعتقدوا بأن الإمام يعلم الغيب، كما أثر عن الصباح أنه كان عالما

بالتنجيم والسحر،⁽²⁵⁾ مما يسوغ مثلاً ادعاء المزمور معرفة الصباح غيباً سيقع بعد ألف من السنين من موته، حيث يعتبر الصباح أن خنجره سيغدو مسيحاً مخلصاً يبعث آن ذاك من جديد: «يا خنجري القتال يا صانع الأهوال أنت المسيح لسوف تبعث، آخر الأزمان والأجيال.»⁽²⁶⁾ ورغم أن نزول المسيح عيسى ابن مريم آخر الزمان ليس منصوباً عليه صراحة في القرآن، إلا أن بعض المفسرين⁽²⁷⁾ احتجوا على ذلك بقوله تعالى: جَاءَ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ مِثْلِهِ نَارُ الْفِرْعَوْنَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَجَسَّسَ فِيهِ عَلَيْهِ، إِيحَاءَ إِلَى الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ كَمَا تَقَدَّمَ الْخَنَجَرُ كَمَقَابِلٍ لَهُ فِي عَالَمِ الْجَمَادِ. والصباح يتنبأ له بصنائع تحاكي صنع المسيح آخر الزمان، حيث يقول النبي(ص): «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا»⁽²⁸⁾، كذلك سيفعل الخنجر بأعداء الباطنية، وسيحل العدل كما يراه الصباح وأتباعه.

أما حاشية هذا المزمور فهي كحاشية المزمورين السابقين شرح لما ورد فيه، وهو على غرارهما شرح يحاكي أسلوب الرواية في علم الحديث حيث ينقل راو عن آخر. ورغم أن هذا الشرح في مجمله رواية تفصيلية لأحداث أشار لها المزمور إشارة عارضة أو مرمزة إلا أن تعلق هذه الحاشية بالنص القرآني يبدو وثيقاً، حيث اقتبست الشخصيات الرأوية للأحداث من القرآن مراراً، مثل قول الصباح لحاكم قلعة الموت حين استولى عليها بالحيلة: «فاخرج منها إنك رجيم»⁽²⁹⁾. هذه الحادثة مثبتة في كتب التاريخ، لكن الاقتباس من قوله تعالى: جُثِثُ ثُثُثُفُ جُ [الحجر: 34] حصّن الشخصية الروائية من المساءلة الأخلاقية، فبدل أن يُعتبر طرد الصباح لمالك القلعة غدراً ومكراً سيئاً بشخص استأمنه وأدخله قلعته، أصبح جزاء عادلاً استحقه حاكم القلعة كما استحق إبليس الطرد جزاء عصيانه وكبره.

يكتسي خطاب الصباح حلة مقدسة من خلال الاقتباس السابق حيث يناظر المتكلم في الآية (وهو الله تعالى) الصباح في الاقتباس، وهذا من الاقتباسات المردودة شرعاً وقد قيل إنها: «على ضربين: أحدهما، ما نسبته الله تعالى إلى نفسه... والآخر تضمين آية كريمة في معنى هزل...»⁽³⁰⁾ لكن عقيدة الإسماعيلية الباطنية لا تنتظر إلى الأمر بنفس المنظور، ذلك أن لهم معتقدهم الخاص في الأنبياء فـ «إبليس وآدم: عبارة عن أبي بكر وعلي، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلي والطاعة له فأبى واستكبر»⁽³¹⁾ كما أن الأمر بالسجود حسب عقيدتهم ليس لله، إذ يعززون الأفعال إلى العقل الكلي كما أسلفنا، ولهذا يصح لنظيره في عالم الأجسام؛ أي الإمام المعصوم، أو داعيته الصباح، أن يأمر حاكم القلعة (وهو نظير إبليس في الآية ونظير أبي بكر في تأويلهم) بالخروج من القلعة ملعوناً.

أما عن ممارسة السحر لاستشراف المستقبل، واستئزال اللعنة، فقد استعان الصباح بساحر يهودي يدعى: شالوم ابن عاموس الفريسي. وقد أوصى الساحر كاتب الحاشية بقوله: «واعلم أن هاروت وماروت

7. التناص القرآني وحشد الأتباع:

163

164

165

الحجر... وحملوا اليقين على معرفة التأويل»⁽⁴⁷⁾. وهذه التأويلات لا نجد لها أثرا في الحاشية فقد منع الصباح شرح الجزء الأول من المزمور، أي ترانيم الليل باعتبارها أسراراً لا ينبغي البوح بها.

لقد أبقى الإسماعيلية تأويلهم للآيات السابقة سرا مكتوماً، ذلك أن كشفه يفضي إلى فضحهم أمام عامة الناس، فيُعرف أن الهدف من دعوتهم سلخ الناس عن دين رب الناس، وطاعة خلق من الناس يدعون العصمة ومعرفة الأسرار والغيوب، ويجعلون هداية الناس مقصورة عليهم، ولا يتم لهم ذلك إلا بتأويل النص تأويلاً يخدم غاياتهم. ويظهر استشهاد الصباح من القرآن قصيدة عملية الانتقاء، حيث تخير منه ثلاث آيات دون غيرها، ثم عزل أجزاء من الآيات عن بقيتها، وأحدث تحريفاً طفيفاً في صياغة بعضها يخفي على غير المتثبت من النص. كل ذلك ليسوغ لأتباعه استحلال ما حرّمه الله من قتل وغصب وخداع وانتهاك للأعراض، في سبيل رضاه وخدمة لمصالحه، لكنه يضيف على ذلك ثوب القداسة من خلال الاستشهاد بالنص المقدس وتحريفه في آن واحد.

10. تأويل المقدس وقمع العقل والقيم الإنسانية:

المزمور السابع هو *مزمور يوم الفصل والميقات* وعنوان هذا المزمور مقتبس من الآية: جگ گ گ گ گ [النبا: 17]. والمقصود فيها يوم القيامة، أما قيامة الحشاشين فهي في إفريقية. وقد جمع الصباح فيه بين أحداث وقعت، وأخرى يتنبأ بوقوعها، كما جمع بين التاريخي والمتخيل. ففي مطلع المزمور يتحدث الصباح بشكل مرمز عن حادثة قتله لولده حسين، وهي حادثة أثبتتها التاريخ مع كثير من الجدل⁽⁴⁸⁾. أغرب ما في هذه الحادثة أن يقتل رجل يدعي معرفة الغيب، وما سيقع بعد ألف من السنين، ابنه البريء ظلماً وهو جاهل بذلك. والأغرب من ذلك كيف تمتيت شهوة السلطة العاطفة الإنسانية الأشد تغلغلاً في الفطرة وهي عاطفة الأبوة.

وبعد حادثة قتل ابن الصباح يعود الصباح ليروي من جديد ما فعله بمساعدة الساحر شالوم من قتل لصهره حبيب، وابنته مريم، وتجفيف الجثتين، ودفنهما أسفل قبره. وتبدو هذه الحادثة المذكورة مراراً وتكراراً كأنها الخيط الرابط بين نص المزامير وما تحيل إليه من زمن تاريخي، والإطار الزمني المعاصر انطلاقاً من لحظة العثور عليها من طرف أستاذ التاريخ. ويحيل إلى الفترة الزمنية التي تسبق بقليل وتعاصر الثورة الشعبية التونسية بين سنتي: 2010-2011م.

يحوّل الصباح الصراع بينه وبين صهره من صراع شخصي إلى صراع فكري: صراع بين منهجين لإدارة الخلاف: منهج العنف والبطش، ومنهج الحجاج العقلي⁽⁴⁹⁾. والصباح يرغب في تصدير منهجه

الدموي إلى الأزمنة المعاصرة، ومنع صهره حبيب من أن يُبعث ويُبعث فكره هناك من جديد، وسبيله لذلك كان تحنيط الجثتين من طرف الساحر شالوم.

نلاحظ في هذا المزمور أن الساحر شالوم يتولى مهام إله ويوصف بصفاته، بعد أن كان هذا من صفات وأفعال الإمام وداعيته. فإذا كان إسناد أفعال وصفات إلهية للأئمة ودعاتهم مفهوماً وفق العقيدة الإسماعيلية - كما أسلفنا - فإن وصف ساحر يهودي بذلك يبدو غريباً، حتى بالاستناد إلى تلك العقيدة. يقول الصباح في مزموره هذا عن شالوم: « شالوم الساحر، علام الغيب. لا شلت يده، ولا غلت، يحيي ويميت بلا ريب. »⁽⁵⁰⁾ ووصف الله تعالى بأنه (علام الغيوب) و(عالم الغيب) وصف متكرر في القرآن الكريم،⁽⁵¹⁾ وقد جمع الصباح لشالوم بين الصيغتين (علام الغيب). كما نجد في نفي الشلل والغل عن يد الساحر اليهودي إحياء إلى قوله تعالى: جؤي ي ب د نأ نأ نأ نأ ج [المائدة: 64] حيث نجد أن الصباح ينفي عن شالوم ما ألحقته الآية به - باعتباره يهودياً - من غل الأيدي واللعن، وإن كان الصباح قد قصد من نفي غل اليد سعة قدرة ساحره لا نفي صفة البخل المثبتة لليهود في الآية⁽⁵²⁾.

ويصل إسباغ صفات الإله على الساحر مداه حين يصف الصباح ساحره بأنه (يحيي ويميت) وهو وصف لله تعالى في آيات كثيرة وبنفس الصيغة⁽⁵³⁾ فضلاً عن صيغ أخرى قريبة منها. وهذا الساحر المؤله من طرف الصباح هو من سيمنع بقواه السحرية انبعاث فكر (حبيب بن أوس). وهنا تقف هذه الممارسة الميتافيزيقية في مواجهة انبعاث الفكر العقلاني المتسامح، الذي يعد أساس الحضارة والتقدم في عصرنا، إنه الإله الزائف، الذي يمنع قيام مجتمع إنساني راق ومتحضر.

الصباح في مزموره السابع والأخير يعتقد أن انفتاح قبره، سيسمح بوصول الماء إلى جثة صهره وابنته أسفل مكان دفنه، وأنه يجب منع ذلك حتى لا تتبعث أفكارهما من جديد، وأن نابش القبر سيدرك ذلك وسيسعى إليه، ويجب منعه من تحقيق غرضه. أما الأستاذ الذي نبش قبر الصباح، ورغم أنه جاء من عصر آخر، فإنه يقع في أسر هذا التصور، ويحاول اكتشاف مكان الجثتين المحنطتين لأن « صب الماء على الجثتين بأوانه فيه إبطال سحر عهود الانحطاط وبداية نهضة الشرق كله »⁽⁵⁴⁾. هنا يتداركه أستاذه السابق وزميله عقب ذلك الأستاذ: عبد العزيز مزبودات رادا إياه إلى جادة العقل.

يرى الأستاذ عبد العزيز أن الحل لا يكمن في تصديق شعوذة ساحر بل في إعمال العقل، فالنهضة حسبه لا تكمن أسبابها في إحياء الماضي بكل أساطيره وخرافاته، بل في فهمه فهماً عقلياً. لذلك قال مؤنباً: « سأقرأ المزامير بهدوء وتمعن وأجيب عن كل تساؤلاتك، فإن هي إلا خدع تفعل بذهنك ما يفعله السراب بعينيك، وإن التبس علي أمر لن أهرع للخرافة، فالأصح عندي أن أرجئه حتى تتاح لي الأدوات

العقلية لتفسيره». (55) وهنا يظهر الفرق بين أستاذ غيبب الرواية اسمه، رغم كونه الشخصية الرئيسية فيها، وحامل لواء سردها، وأستاذ احتفت الرواية باسمه كاملاً وصفته، وجعلته موجه الأستاذ وحاميه، رغم كونه شخصية ثانوية في الرواية.

11. الخاتمة:

- يرسم المزمور الأول من خلال الاقتباس والإيحاء خطة العبور من تقديس رب الناس إلى تقديس واحد من الناس متمثلاً في شخص الإمام الذي يعد نموذج القائد الفرد المدعي للعصمة، المناظر للسلطة السماوية، والمكلف من طرفها.
- في المزمور الثاني يتم تحويل خطة سياسية انتهجها الإمام الفاطمي لاسترجاع ولاء إفريقية من جديد عبر الاستعانة بحسن الصباح لنشر الدعوة إلى أمر ديني مقدس، يصدره الإمام على شكل عطاء مماثل للعطاء الرباني في القرآن للنبي الكريم في سورة الكوثر، وهنا يتم إلباس السياسي رداء الديني، وتحصينه بدرع المقدس.
- المزمور الثالث يتمادى إلى شرعنة العنف وسيلة لحل الخلافات وحسم الصراعات، ويوظف اسم المسيح المحال إليه هنا لشرعنة العنف والقتل، وضمن مجال الميثافيزيقا ينتقل الصباح من المقدس الديني إلى المحرم السحري ليجعل من لعنة الساحر وسيلة لتضليل الأعداء وردعهم.
- المزمور الرابع يبين عن الفئات التي يسهل استتباعها، ثم اتخاذ التدرج منها في تكوينهم العقدي، حيث يتم غرس الاعتقاد بالمعنى الباطني، ووجوب قبول تأويل الإمام للنص. وفي نهاية المزمور يتم الإيحاء إلى خصال الأنبياء في الدعوة بالاكتماء بذكر أسمائهم فقط، حيث الإيحاء موجه إلى خصالهم كالفصاحة، والعلم والحكمة، واليقين والصبر، وكسب المحبة، واللين مع الأتباع باعتبارها خصالاً ضرورية لدعاة الطائفة.
- المزمور الخامس يوضح موقف الصباح وجماعته من الخصوم، فبعد أن يجرد الخصوم من إنسانيتهم بتغيب أسمائهم، تتم شيطنتهم من خلال اقتباس الصفات الملحقة بالشيطان، رمز الشر المطلق في القرآن الكريم، وبذلك يستحق الخصم (الملعون) أن يصلّى جهنم (مذموماً مدحوراً). ويصبح التعذيب بأبشع الطرق وسيلة مقبولة بل ومستحقة.
- يصل المزمور السادس إلى مرحلة خطيرة من خلال محاولة خلق مقدس جديد على حساب المقدس الأصلي، إذ لا يكتفي المزمور بتأويل المقدس لتحريف معناه، بل يتناول على النص بإحداث تغييرات تطل اللفظ، وهذا من أكبر المحظورات إذ تفضح الشواهد القرآنية المبتورة والمحرّفة خبث النوايا الكامنة خلف تحريفها، وبطلان التأويلات المرجوة منها.

12. الهوامش

- ²⁰ سليمان أفندي الأذني، الباكورة السليمانية، جريدة الجالية الأمريكية الشرقية، الولايات المتحدة الأمريكية، 1866، ص30.
- ²¹ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، دط، 1982، ج1، ص291.
- ²² الهادي التيمومي، قيامه الحشاشين، ص45، 46.
- ²³ ينظر محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، منشورات الحوزة العلمية، إيران، دط، دت، ج20، ص371.
- ²⁴ ينظر الهادي التيمومي، قيامه الحشاشين، ص90، 91، 92.
- ²⁵ ينظر عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1997، ج8، 451.
- ²⁶ الهادي التيمومي، قيامه الحشاشين، 91.
- ²⁷ ينظر محمد ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تح أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط1، 2000، ج21، ص631. ومحمد ابن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964، ج16، ص105.
- ²⁸ محمد ابن أسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح، تح محمد بن زهر بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، ط1، 1422هـ، ج3، ص82.
- ²⁹ الهادي التيمومي، قيامه الحشاشين، ص94.
- ³⁰ ابن حجة الحموي، خزائن الأدب، تح عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، دط، 2004، ج2، ص455.
- ³¹ أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنية، تح عبد الرحمن بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، دط، 1964، ص58.
- ³² الهادي التيمومي، قيامه الحشاشين، ص94.
- ³³ ينظر حسين ابن مسعود البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تح عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث بيروت، ط1، 1420هـ، ج1، ص149-151.
- ³⁴ ينظر إميل عباس، الكبالا والسحر اليهودي، مكتبة السائح، بيروت، ط2، 2012، ص221 وما بعدها.
- ³⁵ الهادي التيمومي، قيامه الحشاشين، ص101، 102.
- ³⁶ الهادي التيمومي، قيامه الحشاشين، ص190.
- ³⁷ يعرفه الشهرستاني بقوله "البداء في العلم، وهو أن يظهر لـ[الله] خلاف ما علم.. والبداء في الأمر، وهو أن يأمر بشيء ثم يأمر بشيء آخر بعده بخلاف ذلك." ينظر محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، تح أمير علي مهنا وعلي حسن فاعو، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1993، ج1، ص171، 172.
- ³⁸ ينظر برنارد لويس، الحشاشون: فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، ترجمة محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 2002، ص200، 201.
- ³⁹ الهادي التيمومي، قيامه الحشاشين، ص192.

171

- البغدادي، عبد القاهر، (1977)، الفرق بين الفرق، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط2.
- البغوي، حسين بن مسعود، تحقيق عبد الرزاق المهدي، (1420هـ) معالم التنزيل في تفسير القرآن، بيروت، دار إحياء، التراث ط1، ج1.
- التيمومي، الهادي، (2021)، قيامه الحشاشين، تونس، مسكلياني للنشر والتوزيع، ط2.
- الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، تحقيق عبد القادر عطا، (1990)، المستدرك على الصحيحين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، ج2.
- حسين، محمد كامل، (1959)، طائفة الاسماعلية، مصر، مكتبة النهضة المصرية، ط1
- الحموي، ابن حجة، تحقيق عصام شقيو، (2004)، خزانة الأدب وغاية الأرب، بيروت، دار ومكتبة الهلال، دط، ج2.
- الذهبي، محمد حسين، (1995)، التفسير والمفسرون، القاهرة، مكتبة وهبة، دط، ج2.
- السجستاني، إسحاق، تحقيق عارف ثامر، (1986)، إثبات النبوات، لبنان، دار المشرق، ط2.
- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، تحقيق أمير علي مهنا وعلي حسن فاعو، (1993)، الملل والنحل، بيروت، دار المعرفة، ط، ج1.
- الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، إيران، منشورات الحوزة العلمية في قم، دط، دت، ج20.
- الطبري، محمد بن جرير، تحقيق أحمد محمد شاكر، (2000)، جامع البيان في تأويل القرآن، لبنان، مؤسسة الرسالة، ط1، ج21.
- عباس، إميل، (2012)، الكبالات والسحر اليهودي، بيروت، مكتبة السائح، ط2.
- الغزالي، أبو حامد، (1982)، إحياء علوم الدين، بيروت، دار المعرفة، ج1 .
- الغزالي، أبو حامد، تحقيق عبد الرحمن بدوي (1964)، فضائح الباطنية، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر.
- القرطبي، محمد بن أحمد ، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش (1964)، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط2، ج16.
- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الكرمانلي، أحمد حميد الدين، تحقيق مصطفى غالب، (1983)، راحة العقل، بيروت ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2.

- الهمداني حسين بن فيض الله (1958)، في نسب الخلفاء الفاطميين، القاهرة، مطبوعات الجامعة الأمريكية، القاهرة، ط1.
- المراجع المترجمة:
- بوكاي، موريس، ترجمة حسن خالد، (1990)، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، بيروت، المكتب الإسلامي ط3.
- الجويني عطاء الدين، تحقيق محمد عبد الوهاب القزويني، ترجمة محمد السعيد جمال الدين، (2015)، تاريخ فاتح العالم، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط1، مج3.
- لويس، برنارد، ترجمة محمد العزب موسى، (2002)، الحشاشون: فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط2.
- المراجع الأجنبية:
- Genette, Gérard, (1989), Palimpseste: La littérature au second degré, Paris, Edition du Seuil.
- Kristeva, Julia, (1969), Séméiotiké (Recherche pour une sémanalyse), Paris, Col :Tel Quel Seul.
- Riffaterre, Michael, (1981), L'Intertexte Inconnu, Paris, Littérature, Larousse, n41.